الشيخ محمد العربي بن التباني الجزائري ومنهجه في قراءة التاريخ الإسلامي

د. خير الدين شترة

جامعة المسيلة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة مختصر حياة عالم من علماء الجزائر في العصر الحديث ممن كانت لهم إسهامات كثيرة ومؤثرة في كتابة التاريخ الإسلامي خصوصاً خلال فترة صدر الإسلام، وتصحيحها والذود عنها من المدلسين والمستشرقين، وهو الشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي إمام الحرمين وخادم العلم بأمِّ القُرى.(1898-1970)م. فللشيخ مصنفات كثيرة نافعة ومفيدة حيث كتب غالبًا من أجل تصحيح بعض الأخطاء والرد على المخالفين.

إن الشيخ بن التباني الذي يجهله الكثير من أبناء وطنه يُعدُ وجهاً بارزاً من وجوه النهضة العربية الحديثة في مطلع القرن العشرين، فقد كان ذا شخصية تمتلك ثقافة واسعة، متعددة الفضائل في شتى المجالات، وقد تجمع لدينا من هذه المؤلفات إحدى عشرة كتاباً فقط، ومما له علاقة بإشكالية موضوعنا ثمانية كتب عملت على قراءتها ووصفها وتحليل محتواها بحسب الحيز الكمي المتاح، لنخرج في النهاية بقراءة شاملة للموضوع، وفوائد جمَّة قد يستفيد منها الجيل الحالي في جوانبها التربوية والشرعية والعلمية.

Summary

this study talks about the brief biography of one of the Algerian scholars in the contemporary epoch who had many and emotional contributions in the writing of the history of the Islam especially during the period of the Biding of islam, its rectification and its defence against the falsifiers and orientalists who is Sheikh Mohamed Ben Larbi Tabani Stifi, Imam of Mekka and the servant of knowledge in Oum koura (1898 e 1970) Sheikh has many useful and beneficial works. Indeed, he often wrote to correct some errors and respond to detractors.

Sheikh Ben Tabbani that many of his countrymen do not know is considered an imminent character of modern Arab renaissance at the beginning of the 20th century. He had a personality with wide culture, several virtues in various fields. Indeed, we were able to collect only eleven works including eight which are related to the issue of our subject that I have read, described, and analyzed the content following the available quantitative space to lead in the end to an overall reading of the subject and many benefits of what this generation can take advantage in its educational aspects religious and scientific.

1. التعريف بالشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي الجزائري:

هو الإمام العالم العلامة المحدّث الفقيه، المؤرخ النسابة الثقة المشارك في كل الفنون معقولها ومنقولها[1] بن الحسين الجزائري الحسني المالكي بن عبد الرحمن بن يحيى بن مخلوف بن أبي القاسم بن علي بن عبد الواحد[2] ... وأمه الشريفة السيدة خيرة بنت الطاهر بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن العيساوي. ولد بقرية (الشلخة) أولاد عبد الواحد ناحية رأس الوادي من أعمال سطيف شرق القطر الجزائري سنة عام 1315هـ/1898م[3]. ويُكنى بأبي عبد الله«رغم أنه لم يترك خلفة» وله عدة أسماء مستعارة لعل أشهرها هو أبو حامد مرزوق، الذي أخرج به كتبه الثلاث: براءة الأشعريّين من عقائد المخالفين[4]. (جزآن)- والتعقب المفيد على هدي الزَّرعي الشديد- والنقد المحكم الموزون لكتاب (الحديث والمحدثون)، كما لقَّبه الكاتب عبد الرحمان خياط **بأستاذ الأجيال** لأنه قضى فترة طويلة في التدريس بمدرسة الفلاح المكية (50سنة)، وسمَّاه البعض **بإمام الحرمين**، كما لُقِّب **بخادم العلم بأمِّ القُرى..وخاتمة اعتقاد أهل الإيمان** وألقاب أخرى كثيرة.

إنَّ الكثير من الملكات التي اتصف بها الشيخ المعلّم محمد العربي بن التباني من فنون العلم المختلفة والأخلاق الحسنة والإخلاص ورثها عن عائلته ولاسيما من خاله الشيخ السعيد بن الطاهر بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن العيساوي (1878-1971)م، مؤسس زاوية الشيخ بن العيساوي ومدرستها القرآنية؛ الذي تكفَّل بتنشئته

---

[1] – نسبةً إلى **أولاد تبان** وهي قرية صغيرة لا تبعد عن سطيف الولاية إلا بحوالي 60 كلم، وسكانها بطن من بطون بني هلال القحطانيين وهي الآن دائرة تابعة لولاية برج بو عريريج، وخطأً يذكر اسمه بمحمد العربي التباني، فهو بهذه التسمية يُنسب خطأً وهو الواحدي إلى أولاد تبان، والأصح أن يقال: محمد العربي بن التباني نسبةً إلى أبيه الشيخ التباني.

[2] – زاوية رأس الوادي، من أعلام علماء المسجد الحرام (السيرة الذاتية لمحمد العربي التباني بقلمه)، ص1.

[3] – عبد الفتاح (أبو غدة)، إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح" تع. محمد بن عبد الله آل رشيد، ط1، مكتبة الإمام الشافعي، 1419هـ، ص 377.

ومن أهم مصادر ترجمته: – محمد (سعيد بن محمد ممدوح)، "تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع"، طبعة دار الشباب، ص 371. – محمد (مختار الفلمباني)، "بلوغ الأماني بالتعريف بشيوخ الفاداني" (مخطوط) ج9.. راوه (عبد الفتاح بن حسين جامع)، "المصاعد الراوية إلى الأسانيد والكتب والمتون المرضية وسير التراجم، ط1، 1984م-1404هـ، ص16. – عبد الله (محمد غازي)، نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر،(مخطوط)، – عمر (عبد الجبار)، سير تراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر، ط3، مكتبة قمامة، 1403هـ. – زكريا بيلا، الجواهر الحسان، تح. عبد الوهاب أبو سليمان ومحمد إبراهيم علي. – حسن الجوادي وأحمد صالح، تطوير التعليم بالمملكة.– عبد الوهاب (إبراهيم أبو سليمان)، باب السلام في المسجد الحرام ودور مكتباته في النهضة العلمية والأدبية الحديثة، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، 1427هـ.– عبد الله (بغدادي)، الانطلاقة التعليمية في المملكة. — الفاداني (محمد ياسين بن محمد) ، قرة العين في أسانيد شيوخي من أعلام الحرمين(مخطوط مصور من مكتبة الشيخ) – علوي (مالكي الحسني)، فهرست الشيوخ والأسانيد – عبد الله (غازي)، "نثر الدر في تذييل نظم الدرر في تراجم علماء مكة من القرن الثالث عشر إلى الرابع عشر" ، (مخطوط)، انظر هامش – الشيخ عبد الفتاح، "إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات "، ص377.– زاوية رأس الوادي، "من أعلام علماء المسجد الحرام (السيرة الذاتية لمحمد العربي التباني بقلمه)"، – الأركاني (صالح بن أحمد)، فتح العلام في أسانيد الرجال وأثبات الأعلام، (مخطوط مصور من مكتبة الشيخ)،– الأركاني (صالح بن أحمد)، "الإعلام بوفيات الأعلام" (مخطوط)،. – المعلمي (عبد الله)، أعلام المكيين.– فاروق (بنجر وآخرون)، تاريخ التعليم في مكة المكرمة ورجالاته. – مجلة "الحج والعمرة" ع10 السنة الستون، شوال 1426 هـ ، نوفمبر/ديسمبر 2005م. – "جريدة الندوة" العدد 9411 في 7 / 6 / 1410 هـ. – "مجلة الحج"، ع28، ربيع الأول والثاني، 1394هـ.

[4] – دمشق، مطبعة العلم، 1967م.

صغيراً عقب وفاة والده. و لم يكن له إخوة إطلاقاً ذلك أن والده توفي في صباه في ظروف نجهلها، كما لم يكن له أعمام لهذا عادت كفالته إلى خاله، وله من الأخوال اثنين فقط(السعيد ومحمد)[1]. نشأ محمد العربي في أسرة شريفة، عريقة متينة بالصلة بالعلم والدين، فنهل العلم بالدرس والتقليد، وهو إلى ذلك شديد الرغبة في العلم، واسع الاطلاع على مختلف العلوم، فخور بثقافته العربية وتبحره فيها، فخور بإجازاته وأساتذته، فقد كان على ثقة واسعة بنفسه،

تلقى ابن التباني صنوفًا وألوانًا عدة من العلوم والمعارف تتنوع بحسب تنوُّع المحاضن العلمية التي أخذ منها ودرس فقد تلقى معارفه الأولية في مسقط رأسه رأس الواد أين حفظ القرآن الكريم صغيراً، وأخذ مبادئ العلوم العربية والشرعية عن خاله وعن الشيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي[2] ، وبعد أن شبَّ استأذن خاله في الارتحال إلى كبريات المعاهد والزوايا التي كانت قائمة في وقته على عادة طلاب العلم آنذاك، فأذِن له فنزل في أول رحلاته في جامع الزيتونة، ومكث به أشهراً درس خلالها علوم الشريعة والأدب، ثم شدَّ الرحال إلى الحجاز والشام ومصر، حيث أخذ ذهن الفتى يتفتح ويتنوَّر بعلوم جديدة في مختلف الصنوف، وهو أمر لم يتعوَّد عليه فيما سبق له ودرَس، فشرع يحاول الإنتاج الفكري ويحاول قرض الشعر، غير أن المدينة المنورة وهي محطته الأخيرة شهدت فترة النضج والنبوغ لدى محمد العربي خصوصاً على يد ثلة من المشايخ، كما أن وجوده بالحرمين أتاح له فرص التعرف على الشخصيات الأدبية والعلمية التي كانت تتردد عليهما حجًا وعبادةً ونشراً للعلم فسمع منهم. وبعد سنوات من الرحلة في سبيل العلم والتلقي عن شيوخ كثيرين توجه إلى مكة المكرمة في ظروف غير معروفة، وتولى بها وظيفة التدريس بمدرسة الفلاح التعليمية بعد سنة من وصوله إليها 1920م، ومن مميزات شخصيته هو أنه ابن بادية انتقل إلى الحاضرة، تعلَّم في زوايا الطرق الصوفية ثم في أكبر المعاهد الإسلامية حينئذٍ كالزيتونة والأزهر والحجاز والشام..، وأنه جمع إلى التأليف والنشر وبين التدريس في الحرم المكي والمدينة المنورة.

إذن تكوين ابن التباني الطالب كان تكويناً دينيًا ولغويًا وأدبياً يستمد جذوره من الثقافة التراثية، وتكوين تُجسِّده الكثير من المؤلفات التي درسها وحفظها.ومن رحلاته العلمية تعليماً وتعلماً؛ رحلته الشهيرة إلى الشرق الأقصى من آسيا، أين زار عددًا من الدويلات الناشئة آنذاك، والتي كان بها جاليات مسلمة، ولعل استقراره بمكة المكرمة سمح له خصوصاً في فترات الحج والعمرة بأن يقيم صداقات كثيرة من جنسيات متعددة ذات أصول أسيوية، وللتذكير فإن أصهار بن التباني من جزيرة جاوة الأندونيسية، ومعروف عن بن التباني أنه كان خدوماً لضيوف الرحمان بحسب ما تُثبته المراسلات العديدة التي تَمَّت بينه وبين ذويه في الجزائر، فأغلبها لا تخرج عن توفير رخصة الدخول إلى المملكة، أو استقبال أو خدمة أو توديع أفراد من العائلة أو أحد معارفها، وفي كثير من الحالات كان بن التباني يُحمِّل نفسه ما لا يطيق خصوصاً في توفير وإرسال ماء زمزم أو ماء تغسيل الكعبة المشرفة، أو بعض المقتنيات كالحلي والبخور...لمن يطلبها. قلت أن شهرته بالحجاز، وعلاقاته الودية مع كثير من أصدقائه وطلبته في الشرق الأقصى سمحت له بزيارة عدد من دويلات المنطقة.

[1] - مقابلة مع الشيخ عبد الله بن إبراهيم، رأس الواد 2013م.

[2] - بحثنا عن ترجمته في كل ما عثرنا عليه من معاجم وموسوعات مختصة في تراجم الأعلام و لم نعثر له على معلومات وافية.

ففي عام (1343هـ- 1924م) قام برحلة إلى أندونيسيا ومرَّ في طريقه بملايا وقابل السلطان اسكندر شاه ابن السلطان إدريس شاه فأكرمه وشمله بعطفه وإحسانه تقديرًا لعلمه ومكانته ثم أطلعه السلطان على مجلة الشبان المسلمين التي تصدر من القاهرة، وفيها مقال بجواز لبس البرنيطة وزواج المسلمة بالكافر، فألَّف -رحمه الله- رسالة يحذر فيها المسلمين من لبس البرنيط وزي الكافرين، وتحريم زواج المسلمة بالكافر..، أورد فيها من الآيات والأحاديث ما دحض به افتراءات الملحدين[1].ومن رحلاته العلمية أيضًا رحلة أخرى قادته إلى فلسطين والشام، عام 1372هـ- (1952م)، كما قام -رحمه الله- برحلات عديد خلال الفترة (1349-1358)هـ-(1930-1939)م إلى وآسيا كأندونسيا، والهند، وجزر الخليج العربي وعدن..، وإلى إفريقيا الشرقية كالسودان، وزنجبار....، فاستمد من رحلاته تجارب وملاحظات وألوانًا من الإنتاج الثقافي استطابها فجددت نشاطه وقوة عقله. وبذلك استطاع أن يبني لنفسه شخصية علمية برصيد متنوع هو مزيج بين التكوين الديني والشرعي والأدبي والتاريخي.... فاهتم بالأخبار والأنساب وسعى إلى الإلمام بشتى ألوان المعرفة، وما كان أبداً ينشد الذيوع والشهرة، حتى بعد استقراره بالحرم المكي، ورغم كثرة أسفاره خارج الوطن. وبحسب المراسلات التي بين أيدينا فإن الشيخ ابن التباني قد زار الجزائر عدة مرات منها ثلاث مرات مؤكدة بعد الاستقلال «1962-1970»م منها: خلال الفترة «صفر 1386هـ-جوان 1966م» وخلال الفترة «1390هـ-1969م » بحسب ما نملك من وثائق حالياً.

ويُعد الشيخ محمد العربي بن التباني وجهاً بارزاً من وجوه النهضة العربية الحديثة في مطلع القرن العشرين، فقد كان ذا شخصية تمتلك ثقافة واسعة، متعددة الفضائل في شتى المجالات فمن من الناحية الثقافية: هو أديب ومؤرخ وفقيه، ومن الناحية الاجتماعية: هو معلم وواعظ ومرشد؛ وهو من الناحية الدينية متقٍ لله تعالى، عامل بكتابه، وسنة رسوله ﷺ ونصوح للأمة، وصالح ومصلح، ويُؤيد الحق، ويُنبِّه إلى الخطأ أيا كان مصدره، أما من الناحية السلوكية فهو لطيف المعشر يُؤْلَف ويَأْلف ويُقدِّر أهل العلم والفضل، ومن ذلك أضحت شخصيته علامة فارقة في التاريخ الثقافي للحجاز خلال النصف الأول من القرن العشرين؛....ذكر الشيخ طارق ساردار[2]، أنه قد عرفه عن طريق مشايخه من الطبقة الأولى والثانية فوصفوه له قائلين: «كان جميل الصورة، حسن الهيئة، تعلوه نظرة أهل الحديث، ونور العلم، كثَّ اللحية، طويل القتمة، مهيب الطلعة، متميزاً بأناقته وحسن لباسه وطيب رائحته. كان مُتثلاً للأخلاق النبوية حريصاً على السنن، ملتزماً بآداب الإسلام في جميع أموره. كان متواضعاً يكره المتعالين والمتكبرين، وقد أخذ عمَّن دونه في العلم والسن، و لم يذكر نفسه بصيغة الجمع كما يفعل بعضهم، ولا يرى نفسه في جنب علماء الإسلام وأئمة السلف[3].

---

[1] - مقصود جمال، بلوغ الأماني ، «دراسة غير منشورة».

[2] – عضو في الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة السعودية.

[3] - الملتقى الدولي الأول حول: الاجتهاد والتجديد (الشيخ العربي بن التباني.حياته وآراءه) يومي: 24-25/01/ 2013، من تنظيم وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، سطيف، الجزائر.

والمعلوم أن ابن التباني لم ينقطع عن منطقته بعد سفره الأول إلى الحجاز في عـــز الحـــرب الكونيـــة الأولى (1914- 1918)م حيث رحل إليها عام 1332هـ-1914م، فنشاطه بمسقط رأسه كان متميـــزاً تعليمـــاً، وتأطيراً وتنظيماً لشؤون الزاوية والمسجد، وهو صاحب فكرة تأسيس مدرسة الفلاح التي كان يُـــشرف عليهـــا الشيخ محمد بن علي صويلح المتخرج من الزيتونة، والذي يلتقي في النسب مع بن العيساوي، كما كانت للشيخ رحمه الله علاقة وطيدة مع الأديب الفاضل محمد بلحاج العياضي بوحفص، حيث كانت له معه جلسات وكـــان يراسله من مكة المكرمة وكان ينعته في مراسلاته بالأديب الفاضل، وكانت له أيضاً علاقة حميمية مع الشَّيخ البشير الإبراهيمي[1]. والطيب العقبي والعربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي إمام جامع سيدي رمضان بالعاصـــمة حينـــها[2] والشيخ العباس بن الشيخ الحسين[3].

لقد تتلمذ للشيخ أجيال من التلاميذ، وطلاب العلم الأحرار، فتخرّج عليه كثير مـــن العلمـــاء والمفتـــيين والمدرّسين، ورجال الفكر والشعراء والأدباء، ولا يكاد ينازعه هذا الشرف ـــ خلال النصف الأول مـــن القـــرن العشرين- إلاّ القليل من العلماء المدرّسين بالحرم المكي، فيُعدّ بحق أبا النهضة العلمية في الحجاز، وأهّله لأن يتبـــوأ مكانة مرموقة ويحق لنا أنْ نتساءل: هل كان له ارتباط بالنهضة الإصلاحية والفكرية والدينية في الجزائـــر والـــتي بدأت بوادرها مع مطلع القرن العشرين؟ ولا أكون مبالغًا إذا قلت أنّ كلّ من حمل قرطاساً وقلمًا ببلاد الجزيرة من الجزائريين إلاّ وللشيخ ابن التباني؛ قيد من الإحسان يُطوق رقبته. كما أن الشيخ لم ينسى دعم النهضة الإصلاحية والفكرية والدينية في الجزائر بكتبه ورسائله العديدة حيث تعجُّ رسائله العائلية إلى الجزائر عجاً بما ملخصه توزيـــع العدد الأكبر من النسخ على بعض أعلام الإصلاح في الجزائر، وحتى لبعض الموظفين في الإدارة الفرنسية كالقيـــاد والمدرسين، فقد ورد في إحدى رسائله «1 محرم 1368هـ- 13 نوفمبر 1948م» إلى خاله الشيخ السعيد أنه قد أرسل إليه كتاباً وهدية مع ابن عمه السيد الحاج المدني بن الشيخ تضمَّنت كتاب «شرح الصدور بأحوال المـــوتى والقبور» للحافظ السيوطي، وثلاث نسخ من تأليفه الجديد الذي طبعه في مطبعة الحلبي: « وتأليفي الجديد الـــذي ستسرون به وهو مقدار ثلاثمائة نسخة تقريباً، إلا على إرسال خمس وثلاثين نسخة منه، وقد وزعت كل منها ستة عشرة نسخة للقطر الجزائري، وخمسة نسخ منها مع ابن خروف للبشير الإبراهيمي، والطيب العقـــبي، والعـــربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي إمام جامع سيدي رمضان بالعاصمة، والخامسة لابنه الأحمـــدي، ونـــسخة سادســـة

[1] - جاء في رسالة منه إلى الشيخ السعيد مؤرخة في 28 ذي الحجة 1372هـ (31 أوت 1953)، أرسلها من مصر رفقة مجموعة من كتبه وإصداراته المهداة إلى بعض العلماء والأئمة الجزائريين، وذكر فيها أنه التقى بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

كما جاء في رسالة مؤرخة يوم 20محرم 1372هـ (1953)، يخبر فيها خاله أنه يسعى مع الإبراهيمي لدى أصحاب السلطة والمال في المملكة السعودية بقصد جمع التبرعات لصالح الجزائر، وجاء فيها ما نصه: «..والإبراهيمي لا زال يسلت (يشحت) ويترقب العطاء زالمنح من ولاة الأمر...»

[2] – لقد تحصلنا من الفاضل الشيخ جمال مقصود على 134 وثيقة ورسالة عائلية كان قد أرسلها الشيخ بن التباني إلى عائلته وأصدقائه في الجزائر، وإننا نعمل بإذن الله وقوته على ضم هذه الوثائق إلى الدراسة الشاملة لهذا العالم الكبير مع العناية في إخراج ونشر كتبه السابقة (11 كتاب ورسالة)، ونتمنى طبعها ونشرها. وفي هذه الوثائق نجد ذكر لعشرات الأعلام والمشاهير الجزائريين في زمانه.

[3] – أورد ذلك الأستاذ: الهادي الحسني (محمد)، ونحن ألا نعمل؟، الشروق اليومي، ع2407، الثلاثاء 16 سبتمبر 2008م ص17.

للعاصمة أي إلى مفتي الحنفية بالجزائر، وسابعة لابن سيدي عكة جاءني زائراً بالبيت، والثامنة لابن خبابة مفتي سطيف.....»[1].

من جهة أخرى لم يكن العربي بن التّباني بالهيّاب، فقد كان صاحب عقليّة تأبى الإمّعية، إنّه صاحب ذكورة علميّة بحقٍّ، يغربل الأفكار التي يقرأها أو يسمعها، مطبّقًا عليها القواعد العلمية الدّقيقة من علم الحديث (الجرح والتّعديل)، وعلم أصول الفقه، والمنطق، واللغة العربية بعلومها...، وشعاره في ذلك: «اعْرِف الحقّ تعرف أهله»، و«يُعْرَفُ الرّجال بالحقّ لا الحقّ بالرّجال». ولذا لم تُرْهِبْهُ قامات كبيرة، وأسماء لامعة، مجرّدُ ذِكْرِهَا يُحيلُنا على أعمال جليلة لها؛ إذْ لها على الثّقافة الإسلاميّة يدٌ وأَيُّ يدٍ، ولقد طال قلمه -رحمه الله- علماءَ من عصور مختلفة، وهم فرسان في ميادينهم[2]، من أمثال الشّيخين: أحمد بن عبد الحليم تقيّ الدّين ابن تيمية المتوفّى سنة 728هـ/1328م، وتلميذه محمد بن أبي بكر شمس الدّين ابن القيم المتوفّى سنة 751هـ/1350م، ومؤرّخ الإسلام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفّى سنة 808هـ/1406م، والعلاّمة محمّد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري –آخر وكيل لمشيخة الإسلام في الخلافة العثمانية- المتوفّى سنة 1371هـ/1952م، ومحمد عبده بن حسن خير الله - فيلسوف الإسلام ومفتي الدّيار المصرية في زمانه- المتوفّى سنة 1323هـ/1905م والأستاذ الكبير محمد بن عفيفي الباجوري -المعروف بالخضري-، المتوفّى سنة 1345هـ-1927م والأديب والمؤرّخ النّصرانيّ جرجي زيدان المتوفّى سنة 1332هـ-1914م. حيث انتقد بعض معاصريه وعارضهم بشدة في كثير من القضايا العقدية والتاريخية والفقهية... ولعل أحسن مثال على ذلك الشيخ محمد عبده (من خلال نقد كتاباته، لأن محمد عبده توفي عام 1905م أين كان عمر ابن التباني 07 سنوات)، وكذا رشيد رضا الذي نال حصة الأسد في جميع رسائله نقداً لاذعاً وقدحاً ثقيلاً..فقد جاء في «براءة الأشعريين» نقداً شديداً لرشيد رضا وشيخه: «أما في عصرنا هذا فهُم يتبعون ويُقدّسون كلّ دجّال وكلّ من يطعن في صميم الإسلام وفي رجاله صريحاً ويخدم الاستعمار تحت ستار الإصلاح، وهو في نفسه غير متديّن كصاحب المنار وشيخه وأمثالهما كثيرون، جيش جرّار مؤجر للطّعن في الإسلام بأساليب شتى علاوة على ما به من عوامل هدامة من أمّد بعيد، وهذا مصداق الأحاديث الكثيرة الواردة عنه عليه الصلاة والسّلام»[3].

وقوله: «موقف صاحب مجلة المنار إلى آخر الهراء..تضييع للزمن والورق في مناقشة إنسان ثبت عند المحققّين والباحثين أنه هو وشيخه محمد عبده من العوامل الهدامة للإسلام المتهكّمين بعباد الله وليست هذه بأول أفاعليه، فقد طعن في الأحاديث الصحيحة لمخالفتها لهواه منها الأحاديث الواردة في انشقاق القمر، وتأوّل آيات الكتاب العزيز بتآويل فاسدة نائية عن لغة الضاد منها و﴿انشقَّ القمر﴾ قال معناه: ظهر الحق، وتفسيره مملوء بذلك وهو ومجلته ضدّا اسميهما، وتفسير شيخه لجزء عم مملوء بذلك أيضًا، وإنكاره مع شيخه معجزات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أوضح من الشمس، وتقريظه لكتاب محمد حسين هيكل «حياة محمد» ﷺ المنكر لجميع

[1] – أنظر. ملحق النصوص والوثائق: رسائله العائلية.

[2] – محفوظ بن ساعد بوكراع، العربي بن التّباني النّاقد الموسوعيّ البصير «دراسة بحثية قيِّمة غير منشورة».

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص18.

معجزات الأنبياء عليهم السلام الطَّاعنِ في جميع سنته عليه السلام، المكذِّب لجميع رواتها العُدول بدون برهان شاهد على أعماله»[1].

ومنها قوله: «وقد أفتى خادم الاستعمار والتّيميين صاحب مجلّة «المنار» بأنّ الصلاة على النبيّ ﷺ بعد الآذان بدعة قبيحة فنتج عن فتواه فتنة بين أهل أرياف مصر، وقدم سؤال بذلك للعلامة المحقّق المرحوم الشّيخ يوسف الدّجوي فكتب مقالة نفيسة نُشرت في مجلّة الأزهر أبطل بها شقاشقه»[2]. والأمثلة على عدم تهيبه النقد ومجاهرته بالمواجهة الفكرية والعلمية المبنية على الأسس والقواعد الموضوعية كثيرة لا يحصيها عد.

فمحمد العربي ابن التباني استمد من التراث العربي الإسلامي عبر عصوره المختلفة، فحاكى الآثار العربية الإسلامية القديمة سواءً في نثره أو في شعره، فقد التزم القوالب التقليدية شعراً ونثراً كما تنوَّعت آثاره واختلفت مستوياتها الفنية باختلاف الدوافع والمناسبات؛ ميزتها التواضع في الرأي والقول، فإذا استفزه موقف رأى ظلاله أو سمع قولاً اعتقد بطلانه، لم يتردد في استخدام أسلوب السخرية والاستخفاف والتعريض دون أن يتعالى... احتراماً لنزعته السلفية، مرتكزاً على مشاعره الخاصة وقناعاته الشخصية المتميّزة.

وفي آخر حياته أُبتلي رحمه الله بما أُبتلي به كثير من العلماء الأعلام من مرض الشلل، فبعد حياة حافلة بالخير ومسيرة إسلامية طيبة درَّس خلالها تحت أروقة الحرم المكي، تُشع أنواره في أرجاء الحرم، معلماً لمبادئ الدين الإسلامي، أصيب الشيخ –رحمه الله– بداء الفالج[3]. وهو«شلل اعتراه بلسانه وشقه الأيمن» ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الخميس 22 ربيع الأول 1390هـ الموافق لـ27 ماي 1970م بمكة المكرمة، وهذا التاريخ تؤكده أيضاً مراسلة للدكتور حامد محمد هرساني –وهو طبيب وجراح بمكة المكرمة كان مسؤولاً عن علاج الشيخ– كان قد أرسلها إلى الشيخ السعيد بن العيساوي مؤرخة في 30 ربيع الأول 1390هـ الموافق لـ3 جوان 1970م. وصُليَ عليه بالمسجد الحرام ودُفن بمقابر المعلاة[4] في شعبة النور بجوار قبر السيدة أسماء الصديقية " ذات النطاقين"، واشترك في تشييعه عدد كبير من العلماء وأهل العلم ومحبيه وتلاميذه وعارفي فضله.

قال عنه تلميذه يوسف عبد الرزاق واصفاً حلقته العلمية ومنهجه التدريسي: «وإن من ألمع علمائها الأعلام الذين طلعوا في سمائها بدورًا، وفاضوا في أرجائها بحورًا، ورفعوا راية العلم عالية خفاقة، شيخنا العلامة الفقيه الأصولي، المحدِّث، المفسِّر، اللغوي، المؤرِّخ، الثِّقة، أبا عبد الله السيد محمد العربي بن السيد التباني –أطال الله بقاءه–

---

[1] – النقد الموزون، ص05.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص209.

[3] - ويقول في ذلك زكريا بيلا: «كنت أرى فضيلة الشيخ محمد العربي يدرس بالمسجد الحرام وقرأت عليه نبذة يسيرة من كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي وقبيل وفاته بأيام كنت صليت المغرب بالمسجد الحرام فرأيته عند باب العمرة على كرسي يدرس وحوله الطلاب وحمدت الله على عافيته، وفي يوم الخميس 22 ربيع أول1390هـ بلغني انتقاله إلى رحمه الله، وبعد صلاة العصر صُليَ عليه بالحرم وشُيِّعت جنازته إلى مثواه الأخير رحمه الله وأسكنه فسيح جناته آمين». الجواهر الحسان، ج2، ص271.

[4] - **المعلاة:** هي القسم العلوي من مكة المكرمة، وغالبًا ما يطلق على مقبرة مكة التي صارت تعرف بالمعلاة؛ لوقوعها في هذا الحي (معجم معالم الحجاز، ج8، ص01). فيض الملك الوهاب، ص119.

في خير وعافية، فإنه –حفظه الله– غُرَّة في جبين هذا العصر ودُرَّة يتيمة في تاج الفخر»[1]. و«كان مما يتميز به درسه علمه الغزير بالغزوات، والتواريخ، وإذا غابت عنه مسألة فكَّر قليلاً فاستحضرها وساقها مساقًا حسناً دون إرباك وارتباك، وكان وجهه يسطع نوراً، وجبينه مشرقاً زاهراً، وكان ملازماً لذكر الله لا يفتر عن الذكر، إلا بمطالعة كتاب أو تدريس، ماهراً في علم الفرائض، والتفسير، والمغازي، والسيّر، والتاريخ وهي فنه»[2].

2. نشاطه الفكري والتأليفي:

لقد استطاع الشيخ بمنهجه في البحث والتدريس وأسلوبه في التعامل مع الواقع المحيط به أن يعطي لنفسه مكانةً عظيمة بين معاصريه، وباتت دروسه ومؤلفاته وفتاويه مدرسة روحية واجتماعية وأدبية وعلمية تربى عليها العديد ممن سيحملون مشعل النهضة والإصلاح فيما بعد، فكان بذلك من أوائل من نبّه الأجيال الناشئة إلى ضرورة الاستفادة من عظمة تاريخنا بدون تحيّز، والاستفادة بعلوم الغرب من دون انغلاق، وتحفظ مقيت من أجل النهوض والارتقاء، كما قام بتصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة في أذهان العامة عن الدين والمجتمع والثقافة والتاريخ خصوصاً منه ما ارتبط بالتاريخ الإسلامي الأول...ولم يؤلف الشيخ ابن التباني في التاريخ على الرغم من تمكُّنه منه إلاّ بعد أنْ مارسه تدريسًا عقودًا كاملةً من الزمن، في مساجد مكة المكرمة تدريسًا حرّا، ثمّ في مختلف المساجد والمدارس الشرعية في المملكة السعودية وفي غيرها. ولاقت هذه المؤلفات قبولاً واسعًا لدى طلاب العلم، واستبشروا بها خيرًا، وبالمقابل أحدثت زلزالاً عنيفًا في صفوف خصومه ومن يدور في فلكهم، وقد طبعت هذه المؤلفات جلُّها، ولا تزال بعض العناوين لم يعثر عليها لحد الآن، وسنشير إليها في الحديث عن كلّ مؤلف منها، وتنوَّعت مواضيعها بحسب فنون العلم التي كان يُدرّسها وبحسب ما كانت تقتضيه ظروف المكان والزمان في ذلك الوقت، وسنبدأ الحديث عنها بالتسلسل الزماني لتأليفها.

للشيخ العربي بن التباني رأي في التأليف؛ حيث جاء في مقدمة كتابه «محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب»[3]: «لا أميل إلى التأليف كثيرًا عملاً بنظرية القائل ما ترك الأول للآخر شيئًا، وكادت هذه النظرية أن تكون صحيحة منطقية عندي على العلوم العربية والشرعية بجميع فنونها فمنذ قرون متعددة انقطع المستنبطون والمجددون والمستخرجون للنكت البديعة في هذه الفنون وصار المؤلف الحاذق الذي يستطيع أن يخلص كلام السابقين من المصنفين ويخرجه للناس في أسلوب حسن وهذه الطائفة الحاذقة في التلخيص والتمحيص يمكن أن يقال أنهم بقوا بكثرة وافرة إلى آخر المائة العاشرة وبعدها صار المؤلفون يعمدون إلى الكتب المبسوطة السلسة

---

[1] – ابن التباني، تحذير العبقري، ج2، ص22

[2] – للتوسع يُراجع: – الكردي المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ص521.

[3] – ابن التباني (محمد العربي)، محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب، ص3.كما أورد سيرته الذاتية أيضاً في مقدمة كتابه: إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة، علّق عليه الأستاذ رضا غمور. 1948.

العبارة السهلة الفهم فيعقدونها مبالغة منهم في الاختصار قالوا: وربما ألّف في فن من الفنون من لا يحسنه، ومن أصحُّ علم من تقدمَا.

وهذه المؤلفات أمامنا شاهد عيان نرى الكتاب الواحد من كتب الفقه أو النحو أو الصرف مثلاً شُرح عدة شروح وكل شرح من هذه الشروح له حواش كثيرة وكل شارح ومحش ينقل ما قاله سلفه بالحرف أو يلخصه، والحاذق منهم من يتعقَّبُ سابقه بتجديد مناقشة معه في عبارة أو إبداء اعتراضات أو احتمالات يصعب على طالب العلم في زماننا هذا تحصيل ذلك الفن بسرعة مع ما يحيطه من الكوارث وأشدها الفقر. وأستغفر الله تعالى أن أقول هذا هضماً لحقوق العلماء الشارحين والمحشين فإنهم عندي بالمكان الأعلى من التوقير والاحترام، وما من شرح وحاشية إلا وفيه فوائد؛ ولكن أقول هذه الكثرة لم تنتج شيئًا يقارب علم الأقدمين فضلاص عن مساواته بل أظهرت فضل المتقدمين وبراعتهم في هذه الفنون هذا مع كون المتأخرين وصلت إليهم ثروة عظيمة من تصانيف المتقدمين، وهيأتها لهم المطابع بثمن بخس ومع هذا كله قلّ العلم، ورحم الله تعالى العلاَّمة الناظم الناثر أبا الحجاج البلوي الأندلسي أحد أعيان المائة السادسة ومؤلف (كتاب ألف باء) النفيس إذ يقول مع غزارة علمه: « خذ من هنا وضع ههنا وقُل مؤلفه أنا»....وقد كنت سمعت من شيخي حمدان الونيسي رحمه الله تعالى يقول: « التأليف في هذا الزمان ليس بمفخرة »، وكان رحمه الله يقول: « من كان عنده علم في هذا الزمان فليعلِّم الناس وينشلهم من الجهل ».هذا وإني مع قلة بضاعتي في هذه العلوم التي قتلت بحثاً ونقلاً و لم يبق فيها مقال لقائل أدرجت نفسي في عداد المؤلفين فيها فلي عدّة رسائل ».

وللشيخ مصنفات كثيرة نافعة ومفيدة (قمنا بتوفيق من الله بالاعتناء بها وإعادة نشر بعضها وتحقيق بعضها الآخر)رغم رأيه المذكور في التصنيف حيث كتب غالبًا من أجل تصحيح بعض الأخطاء والرد على المخالفين: «تنبيه الباحث السري إلى ما في رسائل وتعليقات الكوثري»[1]، و«النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات»(صدرت الطبعة الأولى في1358هـ. 1939م)، و«تحذير العبقري من محاضرات الخضري» أو «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار» [2](جزآن)، و«إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة»[3]، علَّق عليه الأستاذ رضا غمور. (وفيه ذكر سيرته بخط يده) (صدرت الطبعة الأولى في 1948م). و«اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح ابن مريم عليه وعلى نبينا السلام آخر الزمان»(صدرت الطبعة الأولى في 1950م)[4]. و«خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام»(صدرت الطبعة الأولى في 1950م)[5].و«إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات»(صدرت الطبعة الأولى في 1950م)[6]. و«نزهة الفتيان في تراجم بعض الشجعان»، أو «نزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان»، أو «حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتاك

[1] – القاهرة: مطبعة الأنوار، ط02، 1379هـ-1959م.

[2] – بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: 1984م.

[3] – السعودية، مطبعة الشرق، 1368هـ- 1949م.

[4] – مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1369هـ- 1950م.

[5] – مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1369هـ- 1950م.

[6] – طبعة خاصة على نفقة الشيخ إسماعيل جمال الحريري، ط06، 1414هـ

والشجعان». (مطبعة المدني- ط2. 1966). و«محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب».(جزء واحد): (صدرت الطبعة الأولى في 1951م).[1].(وفيه ذكر أيضاً سيرته بخط يده). و«براءة الأشعريّين من عقائد المخالفين»[2]. (جزآن)، و«التعقب المفيد على هدي الزَّرعي الشديد». و«النقد المحكم الموزون لكتاب (الحديث والمحدثون)»، وصدرت جميعاً باسم أبي حامد مرزوق. والكتب المذكورة كلها طبعت أكثر من طبعة واحدة، ومما طُبع له و لم نعثر له على أثر؛ سواءً في داخل الجزائر أو في خارجها في حدود ما اجتهدنا: «براءة الأبرار ونصيحة الأخيار من خطل الأغمار». و«مختصر تاريخ دولة بني عثمان». و«إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية». و«تاريخ العرب قبل الإسلام». وقد ذكره الشيخ يوسف إسحاق حمد النيل في تقريظه لكتاب «النصيحة والاستدراكات»[3].

3. منهجه في كتابة التاريخ الإسلامي:

للشيخ مصنفات كثيرة في باب التاريخ الإسلامي عموماً وفي باب السيرة النبوية الشريفة على الخصوص رغم رأيه المذكور في مقدمة سيرته التي خطها يده حول فكرة التأليف والتصنيف، ذلك أن ابن التباني لا يكتب أو يؤلف إلا من أجل تصحيح بعض الأخطاء، أو الرد على المخالفين، وقد تجمَّع لدينا ستة عناوين فقط وهي: «النصيحة والاستدراكات» و«تحذير العبقري»، و«إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة»، و«نزهة الفتيان في تراجم بعض الشجعان»، و«التَّعَقُّبُ المُفِيدِ عَلَى هَدْيِ الزُّرَعِي الشَّدِيدِ»، و«النقد المحكم الموزون لكتاب (الحديث والمحدثون)».

أ. دوافع الكتابة والتأليف التاريخي عند ابن التباني:

إن ثقافة الشيخ ابن التباني في بداية نشأته التعليمية كانت محلية طابعها العام أنها دينية ولغوية وأدبية تستمد من التراث وتحاكيه، ثم طعَّمها بثقافة مشرقية حجازية، وساعده تمكُّنه اللغوي والتاريخي..من دمجها مع رصيده الديني والفكري فكانت النتيجة جملة من المؤلفات التي درَّسها أو اجتهد في إنتاجها ثم استوحى منها عدد من الكتب والمقالات والرسائل كان لها تأثير في كتاباته.

إن هذه الآثار تعكس ثقافته وتختلف دواعيها ودوافع إنتاجها، فمنها الذي أنتجه استجابةً لطلب أصدقائه أو المسئولين عنه في مدرسة الفلاح[4]، ومنها الذي ألّفه نتيجة لتدريسه أو محاضراته التي كان يلقيها في حِلق الدرس وعرصات المساجد، وأخيراً منها الذي أنتجه بسبب كثرة حواشيه وتعليقاته على جوانب وهوامش بعض ما قرأه من كتب ومؤلفات تاريخية صادرة (سواءً كان أصحابها أحياءً أو أمواتاً)، ثم رأى أن يجمعها في رسالة أو كتاب

---

[1] – القاهرة: مطبعة حجازي، 1370هـ- 1951.

[2] – دمشق، مطبعة العلم، 1967م.

[3] – محمد العربي ابن التباني، النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات للخضري، القاهرة: مطبعة الشرق، 1358هـ، ص77.

[4] – ذكر الشيخ محمَّد أمين كتبي في تقريظه لكتاب ابن التباني اعتقاد أهل الإيمان أن أهم دافع له: « ألَّفها فَضيلةُ شَيخنا العلَّامة الكبير الشَّيخ محمد العربي، المدرِّس بمدرسة الفلاح، والمسجد الحرام(حفظه الله تعالى) إجابةً لطلبِ بعضِ الأَصدقاء، فأَتقَنها وحصَّنها وأَحكمَ أَسوارها » راجع:- ابن التباني، اعتقاد أهل الإيمان، ص31.

ليرد بها على خطل صاحبها أو ليُصحح ما وقع فيها من زلل وخطأ، وينبّه الناس إلى عيوبها وضررها. ثم أن المسألة تتطور معه إلى التدقيق أكثر فيرجع إلى القراءة والتدقيق والتثبُّت من عيون المصادر والمراجع التي تدور إشكالياتها حول المحتوى المقصود بالرد والنقد، وبعد أن يتوسَّع في القراءة والمطالعة يُمعن فيها العقل والمنطق فيخرج العمل التأليفي وقد استوفى أغلب جوانبه، وحتى بعد طبعه ونشره، يلجأ ابن التباني إلى نقد وتمحيص مؤَلَفه الذي طُبع، فيعمل على تعديله وتغييره وكأنه يَنشدُ الكمال في جهده التأليفي، وفي كثير من الأحيان فإن غربال النقد يطال حتى العنوان الرئيسي للمؤَلَف الذي صدر في الطبعة السابقة، وهو الأمر الذي أخلط عليَّ عملية مراجعة تراثه، فتجد خطة المحتوى المدون تكاد تكون متشابهة، لكن تختلف في العناوين، والتي قد تصل حتى إلى ثلاثة عناوين بعنوان لكل طبعة كما حدث مع كتاب: «النصيحة والاستدراكات» الذي طبعه أول مرة في عام 1939م رداً على (محاضرات الخضري)، ثم رأى تغيير عنوانه مع التوسُّع في بعض مباحثه فأصبح عنوانه الجديد هو: «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» وفي طبعة لاحقة سمَّاه: «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار»، ليجمع هذين العنوانين الأخيرين معاً في طبعة رابعة، وهكذا دواليك، الأمر نفسه في تأليفات أخرى؛ وبالإمكان أن نجزم بالقول أن الدافع النقدي والتمحيصي هو أهم دافع للتأليف عند ابن التباني وهذا استئناساً بما ذكره في سيرته الذاتية بقلمه مستشهداً برأي شيخه حمدان الونيسي ولهذا يمكن أن نقول أيضاً: أن مؤلفات ابن التباني مجتمعة هي عبارة عن ردود وتوضيحات وانتقادات لا أكثر ولا أقل. وكتب الردود نمط من الكتابة عند المسلمين ناقشوا فيها بعضهم بعضًا، وردوا بها على بعضهم بعضًا ؛ إضافةً وتعليقًا، وتخطئةً وتصويبًا ...وغير ذلك.

كما أن نشأته التعليمية ومكتسباته العلمية والاجتماعية في المشرق ساهمت كثيراً في تنويع آثاره وتشعُّب الموضوعات التي يطرقها، منها العقدي والفقهي البحت، ومنها الأدبي والتاريخي الخالص ومنها ما هو مزيج بين العقيدة والفقه والأدب والتاريخ، وبأعماله الفكرية وثقافته، نال اعتراف الكثيرين بسعة علمه، كما أحرز على إعجاب تلاميذه، وتقدير أصدقائه ومسؤوليه وبعض معاصريه فأجاز الكثيرين وأجازه الكثيرون. إن من مصادر التأليف عند ابن التباني أسفاره الكثيرة، وعلاقاته الواسعة، التي أضافت إلى ثقافته الدينية واللغوية ثقافة جديدة أكثر تنوعاً وشساعة، مكَّنته من القيام بأبحاث اقتبسها، وقراءات استقاها، وأفكار استنتجها. والملاحظ أيضاً في تآليفه هو ذكائه المتميّز بالمنهجية القرآنية، أي لا يأتي بالحادثة أو الرواية أو القصة...إلا إذا كان يقصد منها العظة والاعتبار، وكأنه في محل درس عنوانه النصح والإرشاد، ومن خلال تلك البساطة التي تميزت بها مطالع رسائله وخواتيمها نكتشف مدى التقدير والامتنان الواجب تقديمه لهذا العالم الفذ. ولعل أسمى دوافعه في الكتابة والتأليف هي:

❖ الرد على المفاهيم المدلسة، والاجتهادات الضالة، والعودة إلى الصفاء الأول للإسلام:

إن القضايا والمفاهيم الشرعية والفقهية... أي الدينية عموماً، إذا أخذها الناس مشوَّهة مدلسة بفعل شطحات المتشددين والروافض ودسائس المارقين والمستشرقين وبدون وعي مسبق سيكون لها انعكاسات على سلوكهم الاجتماعي والفكري، إيجابًا أو سلبًا، لهذا أولاها الشيخ ابن التباني اهتمامًا خاصًا، في تأليفاته لغرسها في النشء صحيحة، كما أثّرت عن السلف الصالح من هذه الأمّة، وألّف في ذلك عدة رسائل وكتب لعل أشهرها في

القضايا التاريخية والأخلاقية المتعلقة بالسيرة النبوية أو بالتاريخ الإسلامي الأول: «تنبيه الباحث السري إلى ما في رسائل وتعليقات الكوثري»، و«تحذير العبقري من محاضرات الخضري»، و«إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة»...،...حيث كان يردّ على الشبهات التي كانت تلقي بها بعض التيارات والفرق، ناهيك عن تدليس المستشرقين وأذنابهم في العالم الإسلامي.

❖ نشر العلم والمعارف الصحيحة بين الناس:

لم يكن الشيخ ابن التباني -رحمه الله- مجرّد عالم مدرّس فحسب، بل كان صاحب مشروع إصلاحي، قائم على وعي كامل بالواقع، الذي يعيش فيه هو وأمته، فهو ما إن استقرّ في مكة المكرمة بعد عودته محمّلاً بالعلم الشرعي، وثقافة ووعي كبيرين بدوره في بعث الحياة من جديد فيها، وبعد رحلات علمية عديدة انطلاقاً من بلدته الصغيرة رأس الواد بشرق الجزائر، حتى انطلق في إشاعة العلم بين أفراد المجتمع، الذي ظهرت فيه حينها آثار المذهبية والصراعات السياسية والعقدية والتي صادفت موجة استعمارية أتت على الجميع من أجل تحقيق أهدافها الدينية والسياسية والاقتصادية، فأشاع العلم بدروسه الحرّة عبر مساجد الحرم المكي، وفي مدرسة الفلاح التي كان يدرّس فيها، ثم بالمدرسة الصولتية وعدد من المدارس الشرعية في المملكة. ولكن أهم سلاح تبنَّاه الشيخ في تحقيق هذه الغاية هو الكتابة والتأليف نظراً لقوة تأثير الكتاب، وسهولة انتشاره، ومن خلال هذه الوسيلة التي تبنَّاها الشيخ على مضض تمكن من الدعوة إلى العلم النافع دعوة قوية صريحة، ونشر في ثنايا ما ألَّفه أسس وقواعد النقد والخلاف، وأبجديات للتفكير لا تتناقض مع الدين إذا ما بُنيت على الأسس الصحيحة والمنطقية، لهذا نجده دوماً يطالب المدرّسين بحسن اختيار المناهج، التي تُؤتي ثمارها، وأن يجددوا فيها؛ فالمجتمع دائم الحركة وما كان صالحًا منها بالأمس قد لا يصلح اليوم، كلُّ هذا دعا إليه في رسائله وبواكير أعماله.

❖ الإضافة والتجديد:

إذ لا يكتب إلا إذا وجدت مشكلة تستدعي الحل. ولذلك اتسمت كتاباته التاريخية بالإبداع المعبر عنه في منهجية البحث العلمي بالإشكالية التي لا تخرج عن الإتيان بجديد لم يسبق إليه فيخترعه، أو ناقص يجب تكميله، أو غامض يجب شرحه، أو مطول يجب تهذيبه، دون الإخلال بشيء من معانيه، أو متفرق يجب جمعه، أو مختلط يجب ترتيبه، أو خطأ يجب تصحيحه[1]. وعلى هذا سار ابن التباني في تآليفه المتنوعة، فكانت إما ردود يقصد منها تصحيح الخطأ، أو تعليقات وتنبيهات بغرض الإضافة. أو تنوير القارئ بما غفل وسها عنه. ففي كتاب «إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن الكريم والسنة النبوية من فضائل الصحابة». الذي قال عنه السيد إسحاق عزوز: «وهو رد على الطاعنين في الصحابة، وخاصة الرافضة، الذين ينتقصُون الصحابة الكرام، وقد مهَّد في هذا الكتاب القواعد العامة في فضلهم، كما أردفَ ذلك بخاتمة في فضائلهم عموماً، وخصوصاً الخلفاء الأربعة»[2]. قال في مقدمته: «.. فقد عنّ لي

[1] – محفوظ بن صغير، التأليف والكتابة عند العلامة محمد العربي التباني -المنهج والمقومات.«غير منشورة».

[2] – محمد العربي ابن التباني: تحذير العبقري، ج1، ص2.

منذ سنين خلَتْ لمـــا كتبت نبذةً يسيرة على محاضرات الخضري في نقد الصحابة وبعض الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم خطلاً، أن أكتب رسالة تتضمن فضائل الصحابة في القرآن والسنة»[1].

والأمر ذاته ينسحب على باقي المؤلفات مثل كتاب «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» الذي ألّفـــه في بقصد تفنيد ما شحنت به كتب الشيخ الخضري، التي كانت تدرس في معظم المدارس الدينية في العالم الإســـلامي[2]. وأشهرها: كتابه «محاضراتٌ في تاريخ الأمم الإسلامية»، وكتاب «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، و«إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء»، وهي على جزالة تأليفها، ومتانة عباراتها، وقع مؤلفها في عدد من الأخطاء المنهجية في التـــأليف، أبانت عن تبنيه منهجاً عصْرياً غزَا العالم الإسلامي منذُ ذلك الحين، تمثَّل في أفكار شاذة وآراء غريبة، دخلت علـــى المنهج الأزهري على يد محمد عبده المصري، وابن الغَرابيلي (ت 1322هـ)، الذي قدم من فرنسا حاملاً في جعبتـــه أفكاراً سُمِّيت إصْلاحيةً، بعضُها جيدٌ في النهوض بمستوى التعليم والرقي بالمدارس الإسلامية، ولكنها تنطوي علـــى سموم ناقعة، تتمثل في رد النصوص القطعية من الكتاب والسنة، وفتح الباب لإعمال الأفكار فيها والتقاط الشاذ من أقوال المتقدمين، والبعد كل البعد عن منهج الراسخين في العلم، المتثبتين في فهم النصوص على وجهها، كما سارت عليه جماهير الأمة. فانبرى فضيلة الشيخ محمد العربي، حاملاً قلمه، محرراً مباحث أوراقه وصحائفه، في الرد على تلك الهفوات العظيمة، والزلات الجسيمة التي امتلأت بها صفحات كتاب الخضَري، وأنتجت قريحته وقوة حافظته ومعرفته لمظان النصوص والمسائل، هذا الكتابُ الجليل القدر.

قال عنه السيد إسحاق عزوز: «مهَّد المصنف لكتابه هذا بمقدمة ذكر فيها القواعد الصحيحة التي بمقتـــضاها توثق الأخبار أو تجرح، وقد اقتصر في نقده «للمحاضرات» على الجزء الخاص بالصحابة، كمـــا تعـــرّض لـــبعض الموضوعات الأخرى الدينية، كقصة الفيل، وبناء البيت، وحجّه، والخلافة الإسلامية، وقصة الإسراء والمعراج. ويعتبر هذا الكتاب صنوا لكتاب «إتحاف ذوي النجابة»، إذ كلاهما يتمم الآخر، ففي «الإتحاف» تعرض للقواعد العامـــة، وفي هذا الكتاب تتبع الأخبارَ على ضوء قواعد المحدثين»[3]. ومنه يمكن القول بأن كتابات ابن التباني تتسم بالمنهجية العلمية التي تنطلق من إشكالية الموضوع وحدودها الزمانية والمكانية والشخصية[4]. وهو الأمر الذي جعلـــها تتـــسم بالحيوية والتجديد والإضافة.

ومن إصدارات الشيخ ابن التباني المرتبطة بالتاريخ الإسلامي:

1. **النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات** (صدرت الطبعـــة الأولى في1358هـ. 1939م)

والمرجح أن يكون هذا أول إصداراته. تناول الشَّيخ ابن التَّباني في هذا الكتاب بعض المسائل المتعلِّقة بحياة الصَّحابة (رضي الله عنهم) والتي تناولها بالحديث الشَّيخ محمَّد الخضري بك في (محاضراته) التي جمعها في كتاب حمل اسمه، وقد أورد هذا الأخير جملة من الأخبار تطعن في بعض الصَّحابة، فردَّ عليه الشَّيخ ابن التَّباني بنصوص وأدلَّة تاريخية

[1] – المصدر نفسه.

[2] – المصدر نفسه.

[3] – المصدر نفسه.

[4] – محفوظ بن صغير، التأليف والكتابة عند العلامة محمد العربي التباني –المنهج والمقومات.«غير منشورة».

تُوجب نزاهتهم وبراءتهم مما لا يليق بمكانتهم عند الله وعند رسوله وعند المنصفين من النَّاس، وكان هذا الكتاب الصغير مقدمة لإنجاز كتاب تحذير العبقري من محاضرات الخضري، وهذا بعد التوسع فيه، وتضمن الكتاب ستين بحثاً تعقَّب الجزء الأكبر مما ورد في كتاب الخضري. وفي ذلك يقول: « ومن العجبِ أنِّي سمعت من بعض طلبة العلم السودانيين الثقات؛ أن الخضري هذا لَّما كان قاضيًا عندهم كان يدَّعي النِسبة إلى آل بيت النبي ﷺ العلويين، وما سمعنا قطٌ ولا رأينا في كتب الطبقات والتاريخ أن علويًا صار ناصبيًا، أمَّا أموي صار شيعيًا فقد وجد في واحد وهو أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب (الأغاني)، كما أنه وجدنا صبى واحد من العباسيين وهو جعفر المتوكل. ومن مصائب علم الرواية والتاريخ أن يصير الخضري هذا قدوةً ومرجعًا لكل متسوِّرٍ على التأليف في التاريخ:

لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كِلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

فقد ألَّف بعده عبد الوهاب النجار «تاريخ الخلفاء» فقلَّده في جميع خطله، ورأينا بأعيننا الآن جماعة من الأساتذة اشتركوا في تأليف تاريخ مختصر فجعلوا محاضرات الخضري في قائمة كتب التاريخ المعتبرة التي يرجعون إليها، وقد أسند إليَّ تدريس محاضراته بالمدرسة الفلاحية قبل سنين، فلم يمكِّني السكوت على اعوجاجها وكثرة خطلها فقوَّمْتُها بلساني تقريرًا وبقلمي كتابةً، (والعلم أمانة) فكتبت عليها إذ ذاك رسالة موجزة لم أذكر فيها كلامه واضحًا لأعذار تعقبته فيها في نحو ستين بحثًا وسميتها «النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات»، وكتابتي هذه، وإن كانت خاصة بمحاضراته، فبراهينها ساطعة على كل جانف، وحججها قائمة على كل من خرج عن جادة الاعتدال في حق الصّحابة (رضوان الله تعالى عليهم)».

2. «**تنبيه الباحث السري إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري**»[1]: يُعدُّ هذا التَّأليف من الكتب التي دافعَ فيها الشَّيخ على مذهبه المالكي، حيثُ تعرَّض هذا المذهب إلى حملة نقديَّة من طرف الشَّيخ محمَّد زاهد الكوثري (شيخ الإسلام سابقًا بالدِّيار العثمانية)، فقد تحامل على الأئمة وأتباعهم من غير الحنفية، فردَّ الشيخ الأمر إلى نصابه، جرَّد قلمه وفكره لردِّ شبهات أثارها هذا الأخير في كتاباته، فتناول المؤلِّف خلال ذلك نشأة هذا المذهب، وتاريخ دخوله إلى المغرب العربي، كما أفاضَ في بيان مزاياه، وسرد جملة من فضائل إمامه (الإمام مالك). فالكتاب يُعدُّ مصدرًا من مصادر تاريخ التَّشريع الإسلامي، ومرجعًا في بيان أصول المذهب ومقاصده.

وتضمَّنت مقدمة الكتاب وصفاً شاملاً لمحتوى الكتاب يقول فيها ابن التباني: « فقد اطَّلعتُ على ثلاثِ رسائل للشَّيخ محمَّد زاهد الكوثري نزيل مصر الآن: إحداها: (التأنيب في رد أكاذيب الخطيب)، يعني الخطيب البغدادي فيما ذكره في (تاريخ بغداد) في ترجمة الإمامِ أبي حنيفة (رضي الله تعالى عنه) مِن طعنِ بعضِ النَّاسِ فيه. والثانية: (إحقاق الحقِّ في الرَّدِّ على رسالة مُغيث الخلق)، المرجِّحة لمذهب الإمامِ الشَّافعي على سائرِ المذاهب المنسوبة لإمام الحرمَين. والثَّالثة: (بلوغ الأماني في ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني)، تلميذ الإمامَين أبي حنيفة ثمَّ أبي يوسف، ... ثمَّ اطَّلعتُ أيضًا على مقدِّمةٍ جعلَها لكتاب: (نصب الرَّاية في تخريج أحاديث الهداية) للمحدِّث

[1]- القاهرة: مطبعة الأنوار، ط02، 1379هـ-1959م

الزيلعي، فوَجدتُ الغايةَ التي يَرمي إليها في رَسائلِه الأَربع واحدة، وهي التعصُّبُ للإمامِ أَبي حنيفة وأَتباعه، ومِن لازم ذلك عندَ حَضرتِه، الغضُّ مِن أَئمَّةِ الإِسلامِ وعلمائِه، وإن اختلفت العَناوين فيرى المطَّلِعُ عنوان الرَّدِّ على الخطيب فَيظنُّ أنَّه اقتصر في نقدِه على المردودِ عليه، حسبَما هو النَّهج المسلوك لحملةِ العلم، فإذا تصفَّح صفَحاته يجِده ضَربَ يميناً وشِمالاً، .... ومع هذا كلِّه ختمَها بقائمةٍ أُخرى تحتَ: (كلمة في كتب الجرح والتعديل)، غمزَ فيها قَناةَ جماعةٍ مِن أَئمَّة الحديث، أَجلّهم الإمام عبد الرَّحمن بن مهدي شيخ حافظِ الأُمةِ محمَّد بن إسماعيل البخاري، وحيثُ إنَّ كثيراً مِن الأَبحاثِ يكرِّرها فيذكرُها هنا وهناك، وإنَّ الفروعَ التي ذكَرها وجلّها في (إحقاق الحقِّ) ظنيَّة تَتجاذَبها أَنظارُ المجتهدين، فالخطبُ فيها سهل، والتعصُّبُ لها ضربٌ مِن الجنون. لم أكتُب إلَّا على أهمِّ المباحث في الرَّسائل الأَربَع، وعلى بعضِ تعاليقه، وقَد سُقتُ مِن كلامِه برُمَّتِه في كلِّ بحثٍ تعقّبتُه فيه، ليظهرَ للقارئ جليةُ أمرِه فيعذُرني. ...ولا أضمَن للقُرَّاءِ عدَم خطئي في هذا التعقُّب، فإنّي قليلَ البِضاعة فقيرٌ مِن مادَّةِ الكُتب، فَرحمَ الله مَن تأمَّله بإنصاف، وأصلحَ ما فيه مِن الخطأ بدونِ اعتِساف ». قال عنه الشيخ يوسف عبد الرزاق (المدرس بكلية أصول الدين) بأنه: « كتاب نفيس يُنبئ عن براعته، وسِعَة اطلاعه، فجزاه الله عن العلم وأهله أحسن الجزاء وأدام به النفع للمسلمين آمين»[1].

3. **تحذير العَبقري من محاضرات الخضري**[2]: يعتبر هذا الكتاب صنوًا لكتاب (إتحاف ذوي النجابة) إذ كلاهما يُتمم الآخر؛ ففي الإتحاف تعرَّض للقواعد العامة، وفي هذا الكتاب تتبع الأخبار على ضوء قواعد المحدِّثين. ويتناول الشَّيخ محمَّد العربي ابن التَّباني في هذا الكتاب بعض المسائل المتعلِّقة بحياة الصَّحابة (رضي الله عنهم) والتي تناولها بالحديث الشَّيخ محمَّد الخضري بك في (محاضراته) التي جمعها في كتاب حمل اسمه، وقد أورد هذا الأخير جملة من الأخبار تطعن في بعض الصَّحابة، فردَّ عليه الشَّيخ ابن التَّباني بنصوص وأدلَّة تاريخية تُوجب نزاهتهم وبراءتهم مما لا يليق بمكانتهم عند الله وعند رسوله وعند المنصفين من النَّاس. وقد مهَّد المصنِّف كتابه هذا بمقدِّمة ذكر فيها القواعد الصَّحيحة التي بمقتضاها توثَّق الأخبار وتصحَّح، ومن ثمَّ يُمكن اعتبارها مادَّة يوجِّهها الباحثُ ويستقرأُ وقائعها[3]. ثمَّ إنَّ المؤلِّف اقتصر في نقده لمحاضرات الخضري بك على الجزء الخاصِّ بالصَّحابة، كما تعرَّض لبعض الموضوعات الدِّينية الأخرى،كقصَّة النِّيل، وبناء البيت، والخلافة الإسلامية، وقصَّة الإسراء والمعراج.

وعليه فيمكن القول بأنَّ هذا الكتاب جمع في طياته، جانباً من التَّاريخ والسِّيرة النَّبوية، ومجموعة من الأخبار والتَّوجيهات والتَّصحيحات التي لا يسعُ المشتغل بعلم التَّاريخ جهلها، فهو وإن كان كتاباً في النَّقد التَّاريخي، نقد فيه مصنِّفه ما احتوى عليه كتاب (محاضرات الخضري) الذي وقعَ صاحبه في سقطات كبيرة ينبغي التَّحذير منها، وإعادة تمحيصها، وهذا بالرُّجوع إلى مصادر التَّاريخ الإسلامي. فالكتاب في مجمله يمكِنُ أن يستخرجَ منه القارئ

---

[1] – ابن التباني، تنبيه الباحث السري، ص279.

[2] – بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: 1984م.

[3] – للتوسع راجع، أبي عبيدة (مشهور بن حسن)، كتب حذر منها العلماء، مج 2 . تق. بكر عبد الله أبو زيد، دار الصميعي، ب.تص.ص(56-62)(255-258).

منهجًا يسلكه في تعامله مع الأخبار نقدًا وتحليلاً، كما يستفيدُ منه طريقة العرض في تناول المسائل الشّائكة، وأسلوب النِّقاش الهادئ البعيد عَن كلِّ ما لا يليق بالباحث وسلوكه في مثل هذه القضايا، وقد جاء نقده مرتَّباً على ترتيب (محاضرات الخضري) في تاريخه، وفي كلِّ محاضرة ينقد ما جاء فيها مِن أخطاء ويصحِّح ما فيها من أخطاء.

وابتدأ نقده (في المحاضرة الثالثة وهي الأولى بالنسبة لما تعقَّبَه) بـ: (حادثة الفيل)، وفنَّد فيها مزاعم المحاضر الباطلة وتمحلاته الخاطئة وتحريفاته الفاسدة وتأويلات شيخه ومقلدَّه محمد عبده للطير الأبابيل بما يأباه صحيح المنقول وصريح المعقول، تفنيدًا مُبسطًا بالأدلة الساطعة أتى عليها من القواعد واجتثها من الأصول. (وفي المحاضرة الرابعة): كشف – عن جهل المحاضر– القناع في مخالفته للقرآن والصِّحَاح والتاريخ في سكنى إسماعيلعليه السلام "قبل جُرْهُم" في أشرف البقاع. (وفي الخامسة والسادسة): تَّم الكشف عن جهل المحاضر في قصة جُرْهُم وإسماعيل ودعواه أنه هو الذي بنى الكعبة وجعلها مطافًا يحجها أولاده.

(وفي السابعة): خطأه في وثُوقه بمؤرخي الإفرنج وعدم ثقته بمؤرخي الإسلام في قصة بحيرا، (وفي الثامنة): استدرك عليه تقصيره في إيراد أقسام الوحي ثم ساقها أحسن سياق نقلاً عن الإمام المحقق السهيلي، وأبطل سخافات الزاعمين أن الملائكة والجن والشياطين قوى لا أجسام، بما نقله من النصوص القرآنية العديدة التي أعتقد أنك لا تراها مجموعة هذا الجمع البديع في غير هذا التعقيب، (وفي التاسعة): ألزمه إلزامًا ـــ لا يمكن التقصي عنه بحال ـــ بأن إنكار كون الملائكة والجن والشياطين أجسامًا تكذيب للقرآن الذي أثبت ذلك في آيات كثيرة يتعذر تأويلها، وأن نتيجة هذا الإنكار بطلان الوحي.. ولامه على دمسه قصة عدّاس مع النبي ﷺ في الطائف، وإنذار الشيطان لقريش بصراخه عند بيعة العقبة الثانية، وتمثُّل الشيطان لقريش في دار الندوة، وما وقع من هتاف الجن عند هجرته –عليه الصلاة والسلام– ودرة شاة أم معبد، وقصة سراقة بن مالك المدلجي. (وفي العاشرة): وضَّح معنى المعجزة بأتمِّ بيان، وبسَّط القول في وجوه إعجاز القرآن بسطًا يأخذ بخناق المعارض ويغلُّ يدي المناقض، وقد تعرَّض لذكر طائفة من العصريين أنكروا المعجزات واخترعوا للأنبياء بدل وصفهم بالنبوة العبقريات بغية التخلُّص من معجزاتهم الملازمة للنبوات، ونقل عن العلامة الشيخ مصطفى صبري التوقادي تبكيتهم في تقليدهم ملاحدة الغربيين في إنكارها،

(وفي الثانية عشرة وتاليتها): لاحظ عليه تركه لستة من أعلام نبوته ﷺ في غزوة بدر، وسبعة في غزوة أحد وستة في غزوة الخندق، وواحد في غزوة الحديبية، وواحد في غزوة مؤتة، (وفي السادسة عشر): تعقَّبه في عدة أخطاء، ثم بيّن أن في المقدار الذي كتبه في رد أباطيله في سيرة النبي ﷺ من دلائل النبوة والوحي وأنواعه ومتعلقاتهما كِفَاية للمسلم المتبَصِّر، وأنه يشرع بعد ذلك في دحض أباطيله في الخلافة وسيرة الصَّحابة –رضوان الله تعالى عليهم–، لأن سيرتهم جزء من سيرته –عليه الصلاة والسلام–، والطعن فيهم طعن فيه وفي القرآن الذي عدلهم وأنهم دعائم الدين، فالطعن فيهم طعن فيه، وساق الآيات والأحاديث في الثَّناء عليهم والتحذير من سبِّهم...هذا ولو أردت التنبيه على كل ما في هذا السفر الفائق من اللطائف والتحقيقات، ولو بالإشارة العابرة لاستدعى ذلك تطويلاً يتجاوز حدّ الإسهاب. وقد قام بتقريظ هذا الكتاب عدد معتبر من مشايخ الحرم المكي والمشهود لهم بالعلم والنبوغ وأجمعوا بالاتفاق على أن هذا الكتاب ذا محتوى علمي ومنهجي راقي.

4. **إتحافُ ذوي النَّجابة بما في القرآن والسُّنَّة من فضائل الصَّحابة**[1]: وهو رد على الطاعنين في الصحابة خاصة منهم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة الكرام، وتضمَّن هذا الكتاب جميعَ ما وقف عليه مِن آيات وأحاديث تنوِّه بفضل الصَّحابة رضي الله عنهم جميعًا، وتشهد بعلوِّ مترلتهم وقوَّة يقينهم، فساق سبع عشرة آية من القرآن تثبتُ فضلهم، وشرحها شرحًا جميلاً ومفيدًا، ثم ساقَ جملةً من الأحاديث النَّبوية الشَّريفة تعزِّزُ مكانتهم، مع ذكر بعض الحكايات الطَّريفة والأخبار الصَّحيحة تجري في هذا السِّياق، وقبل أن يختمَ كتابه عقدَ فصلاً تناولَ فيه الرَّدَّ على كلِّ مَن انتقصَ مِن قدرهم، ورسمَ فيه منهج أهل الوسطية الذي يقضي بعدم الخوضِ في الخلافات والنِّزاعات التي وقعت بينهم بعد وفاة الرَّسول ﷺ، ثمَّ ختم كتابه بذكر مجموعة من الأحاديث الخاصَّة في بيان شرفهم وفضلهم على هذه الأمَّة. ومن أهمِّ مميِّزات هذا الكتاب هو حسن التَّبويب الذي عُرِفَ به المؤلِّف الشَّيخ ابن التَّباني (رحمه الله) مع الأسلوب العِلمي الرَّصين، والمنهج التَّربوي الرَّفيع.

5. **نزهة الفتيان في تراجم بعض الشجعان** أو نزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان، أو حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان[2]. وهي رسالة جمعت بين متعة الأدب ومسلك التراجم، ضمَّنها الشيخ ابن التباني سرد مجموعة من تراجم بعض الفتاك والشجعان وأخبارهم، ومما جاء في مقدمة العمل: « إنَّ الله سبحانه لما أعزَّ هذا الدّين ونشره ونصر نبيّه بأبطال كرام وعزَّره، كان حقًّا علينا أن نعرف قدرهم ونقتفي آثارهم ونشيد ذكرهم، لما لهم علينا مِن فضل نصرته وتمهيده، ورفع عماده وتشييده، فأحببت لذلك أن أذكر في هذه الرّسالة بعض من اشتهر منهم بالبسالة، وانتشر ذكره انتشار الغزالة[3]، وأقدِّم بعضَ المشهورين في الجاهلية بالفتك والإقدام، ثم أذكر بعدهم بعض مشاهير الإسلام، ناسبًا كل واحد إلى قبيلته، مُتْبِعًا ذلك بحكايات وفوائد، وسميتها «نُزهةُ الفتيان في تراجُم بعض الشُّجعان »[4].

6. **التَّعَقُّبُ المُفِيدِ عَلَى هَدْيِ الزُّرَعِي الشَّدِيدِ**[5]: تضمنت هذه الرسالة تسعة وأربعون مبحثاً، تعقَّب فيها الشيخ محمد العربي بن التباني، محمدًا بن أبي بكر الزُّرَّعي الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية، المتوفى سنة سبعمائة وإحدى وخمسين (751هـ)، المتعصِّبُ للإمام أحمد –رحمه الله تعالى– ولشيخه ابن تيمية تعصبًا شديدًا، كثير الثَّلبِ للحنفية والشافعية والمالكية. وكان بإمكان ابن التباني أن يتعقبه في غيرها لكن آثر الاختصار قصد تعميم الفائدة « ولو تعقَّبته في جميع خطله لما كفاني مجلد ضخم. وأسأل الله سبحانه وتعالى التأدب مع أئمة الدين وعلماء المسلمين، ويقيني من مصارع الزيغ والإعجاب. والحمد لله تعالى على موافقة الحق والصواب»[6].

---

[1] – السعودية، مطبعة الشرق، 1368هـ– 1949م.

[2]– مطبعة المدني– ط2. 1966م.

[3]– الغزالة: الشمس.

[4]– وقد أورد بعضهم هذا الكتاب بعنوان (نزهة الفتيان في تراجم بعض الفتاك الشجعان) بزيادة لفظ الفُتَّاك، والصحيح ما ذكره المؤلف.

[5]– دمشق، مطبعة العلم، 1967م. وأعاد نشره: عبد الواحد (مصطفى)، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين وكتب أخرى، دمشق: دار المصطفى، 2007م.

[6] – التَّعَقُّبُ المُفِيدِ عَلَى هَدْيِ الزُّرَعِي الشَّدِيدِ، ص74.

7. النَّقْدُ المُحْكَمْ المَوْزُونْ لكِتَابِ (الحَدِيثُ والمُحَدِّثُون)[1]: وفيه تعقَّب بالنقد والتصحيح كتاب "الحَدِيثُ والمُحَدِّثُونَ" لمؤلفه الشيخ محمد أبو زهو (الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر)، وناقشه في عدد من المسائل مثل: فرق الشيعة وأفكارهم، كما دحض بعض الافتراءات التي وردت فيه حول الصحابة والمذاهب الأربعة خصوصاً في قضية أنهم مخالفون للأحاديث في بعض المسائل، كما ناقش مسألة بطلان أحاديث وضعت للتنفير من بني أمية، وأعمال مروان الموبقة، والقول الحق في المتوكل المأمون، وفيه وجَّه انتقادات حادة إلى رشيد رضا وشيخه محمد عبده ووصفهم بأنهم من العوامل الهدَّامة للإسلام.

ب. خصائص فن الكتابة والتأليف التاريخي عند ابن التباني:

❖ منهجه في رواية الخبر:

وعن منهجه في قراءة التاريخ تحدَّث ابن التباني في مقدمة كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» عن الطريقة التي تناول بها الكتابات التاريخية الشَّيخ محمَّد الخضري بك في (محاضراته) التي جمعها في كتاب حمل اسمه. والذي أورد فيه جملة من الأخبار تطعن في بعض الصِّحابة، فردَّ عليه الشَّيخ ابن التَّباني بنصوص وأدلَّة تاريخية تُوجب نزاهتهم وبراءتهم مما لا يليق بمكانتهم عند الله وعند رسوله وعند المنصفين من النَّاس. وقد مهَّد المصنِّف كتابه هذا بمقدِّمة ذكر فيها القواعد الصَّحيحة التي بمقتضاها توثَّق الأخبار وتصحَّح، ومن ثمَّ يُمكن اعتبارها مادَّة يوجِّهها الباحثُ ويستقرأُ وقائعها. ومن خلال هذه المقدمة يتضح للقارئ منهجاً جديدة في قراءة التاريخ يشبه أو يكاد في أسسه وقواعده علم المناهج عند الغرب المحدثين. وفي هذا يقول تلميذه علوي المالكي (المدرس بالمسجد الحرام وبمدرسة الفلاح بمكة المكرمة): «لقد وفَّق الله شيخنا المحقق ...محمد العربي التباني .... فجمع وأفاد، وانتقد وأجاد، وأبان سبيل الرشاد وحذَّر من بعض الروايات والكتب المزيفة فحقق تحقيقًا صحيحًا فنيًّا، ونقدَ نقدًا واضحًا علميًا، مطابقًا لأصول الرواية وفنون الدراية مع التزام الإنصاف والأدب في الرد والنقد وهذا مما يَنْدر جدًا في هذا العصر من الباحثين، ومما يعد من حسنات المؤلف المحقق أنه جمع في انتقاده وتحقيقه بين الرد الديني بالنصوص وبين النقض العقلي السليم لشبهات مزيفة على ضوء الواقع، بأسلوب عصري جذَّاب منير مع الاستشهاد بالمجريات الكونية والحوادث السياسية مما يشهد حقًا لسعة علم المؤلف المحقِّق وطول تجاربه وحسن خبرته وصفاء عقيدته وكمال أدبه، فلقد أبلى في دراسة التاريخ الإسلامي بلاءً حسنًا، وقرأ أكثر كتبه المشهورة والنادرة حتى صارت له ملَكَة فائقةً يشهد بها كل من حضر دروسه وقرأ كتبه فجزاه الله تعالى عن العلم والتاريخ والأدب أفضل الجزاء...»[2].

لقد اعتبر ابن التباني أن التاريخ ليس نقل محض وخبر، وأكّد على أن الخبر يجب أن يشترط فيه عدالة الرواة وضبطهم، وإعمال الرأي في الحوادث لا يجب أن يطلق على عواهنه بل يجب تناوله بعد استيفاء الحوادث لشروط صحة الأخبار، كما أن نقص شرطٍ من الشروط يجعل الرأي معزول، ويؤكد ابن التباني على أن هذا هو الأساس الذي يجب أن ينتهجه للطعن في رجال الإسلام عمومًا، وكيف إذا كان الأمر بسادات الأمة وكبار الصحابة. إن

[1]- براءة الأشعريين من عقائد المخالفين وكتب أخرى، دمشق: دار المصطفى، 2007م، ص2

[2] - المصدر نفسه، ج2، ص19

المؤرخين الذين يدعون حرية المنهج في كتاباتهم عن سادات الأمة أشد خطرًا من الخوارج والروافض، لأن عقيدة هؤلاء أضحت مكشوفة لجمهور المسلمين السنيين بعكس هؤلاء الذين يتسترون بستار التاريخ الحر فهم أخطر على شبان المسلمين لأن دعاويهم صادفت قلوبا خالية من تاريخ ومناقب الصحابة.[1]

❖ **أمانته العلمية في النقل والاقتباس:**

ولعل رحلتنا البحثية (التعليق والدراسة) مع بعض رسائل ومؤلفات هذا الرجل[2] أوحت لنا بإحدى أهم صفات ابن التباني وخصاله العلمية، وإن لم نكن من السباقين إلى كشفها؛ ألا وهي الأمانة العلمية في النقل والتثبت والدقة في الفهم والاستنتاج، والجرأة في الكشف والمواجهة عند الحق، ولعل من أساسيات أمانته العلمية أنه كان لا ينسب لنفسه ما ليس له، مع احترامٍ كاملٍ لأخلاقيات الموضوعية وقواعد المنهجية والأمانة العلمية واكتساب مزايا النزاهة والموضوعية، كالدقة في فهم آراء وأفكار الآخرين والدقة أثناء القيام بالاقتباس، والاعتماد بالدرجة الأولى على الوثائق الأصلية في الاستشهاد والاحترام التام لقواعد الاقتباس والإسناد وتوثيق الهوامش، والتدقيق والحرص على التفريق بين مصادر وآراء الباحث وأفكاره، وآراء الآخرين حول الموضوع. وعلى هذا فالأمانة العلمية عند ابن التباني تقتضي الدقة في النقل عن الآخرين، وعزو الأقوال لأصحابها، وكذا الدقة في فهم آراء الآخرين حتى لا تؤول على غير مراد أصحابها. ولذلك نجد الشيخ ابن التباني حريص كل الحرص على نسبة الأقوال لأصحابها لفظًا ومعنى عند تحريره للمسائل الفقهية، كما أنه من باب الأمانة العلمية أنه لا يعتمد رأي مذهب معين بتغليبه على مذهب آخر، بل نجده متفتح على كل مذاهب أهل السنة عارفًا بآرائهم، معتمدًا على أصولهم ويبدو هذا جليًا في كل كتبه ورسائله.

❖ **لغته وسحر بيانه في الكتابة:**

إن مؤلفات الشيخ محمد العربي ابن التباني بالنظر إلى اللغة الراقية التي كتبت بها تُعد من كنوز اللغة العربية. كما أنها حملت في طياتها أسماء وعناوين مئات الكتب والمصنفات في شتى أنواع العلوم الإنسانية والدينية وغيرها، و لم يقف المؤلف عند أسماء هذه الكتب بل غاص في ثنايا نصوصها، كما حافظت هذه الكتب في مضمونها على لغتنا العربية، حيث حرص مؤلفه على إبراز التراكيب الجميلة والنادرة للغتنا العربية التي قلّما نجد لها نظيراً في اللغات الأخرى. فأسلوب المؤلف في الكتابة سهل، واضح، صحيح التراكيب، لا يعمد فيه صاحبه إلى السجع إلا في حالات قليلة، مع اعتناء بانتقاء الألفاظ المناسبة، وعدم الإكثار من المقاطع المسجوعة إلا بقدر ما تتطلبه الحاجة، ويبدو ذلك بشكل جلي في مقدمات كتبه، وفي بعض التعليقات التي يثبتها في ثنايا المحتوى. أما ما تزخر به مؤلفاته ورسائله من الأساليب القديمة التي تتخذ من السجع منوالاً للتعبير فإنها-في معظمها- اقتباسات ونقول حرفية عن المصادر التي اعتمد عليها كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

❖ **قدرته على النقد والتعليل:**

---

[1]- ابن التباني، إتحاف ذوي النجابة، ص.ص (123- 124)

[2] - راجع دراستنا الكاملة لكل أعماله: الشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي الجزائري إمام الحرمين...وخادم العلم بأمِّ القُرى، الجزائر: دار البلاغ، 2013م.

لقد تشرّب ابن التّباني منهج علماء الحديث في الجرح والتّعديل، فإذا ما قرأنا كتبه تحسّسنا تلك النّبرة النّقدية القديمة التي تُنبِئ عن الصّدق، والمستجيبةِ للعقل والمنطق، وقد انطلق في ذلك من القواعد التي أصّلوها في كتبهم، فلا مقبول عنده إلاّ ما خضع لتلك القواعد الدّقيقة التي اعترف بصحّتها وسَبْقِها محقّقون من غير المسلمين، يقول ابن التّباني عن هذه الخاصية المهمة في منهجيته التأليفية[1]: «... التّاريخ نقلٌ محضٌ، يُشترط فيه ما يُشترط في الأثرِ مِنْ عدالة الرّواة النّاقلين لأيّ حادثة من حوادثه، تتعلّق بأيّ شخص كان من النّاس، وضبطهم لِمَا نقلوه، وغير ذلك من شروط الخبر المعتبرة في النّاقلين فردًا فردًا، فمجال الرّأي في أيّ حادثة منه لا يكون إلاّ بعد استيفائها شروط الصّحة للخبر، وإن نقص شرط من الشّروط المعتبرة فيه فالرّأي حينئذ معزول، والفهم – مهما وَثِقَ به صاحبه وغَيْرُه– مطروح، هذا هو التّحقيق والأساس الذي يجب على كلّ من نصَّب نفسه للطّعن في عامّة الأمّة، أنْ يبني انتقاده عليه، فكيف به إذا كان في خاصّة خاصّتها، ...وإذا كان كثير من مؤرّخي الأقدمين يَجْمَعُونَ في مؤلّفاتهم الغثَّ والسّمينَ، ويقدّمونه للنّاس بدون تمييز، وكثير منهم من أهل الأهواء، وكثير منهم لا معرفة لهم بعلم الإسناد وفضائل الصّحابة، ولأجل ذلك قال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد: "أعراض المسلمين حفرة من حفر النّار وقف على شفيرها المؤرّخون والأمراء". فكيف بالمتأخّرين الذين ليس عندهم إلاّ التّقليد لكلّ من هبّ ودبّ، ولقد هزُل علم التّاريخ في هذا العصر، حتّ تسوّر على التّأليف فيه من لم يشَمَّ له رائحة، ولا عجب في ذلك؛ لأنّه إذا كان عبارة عن رصف مقال بأسلوب عصريّ، وجمعِ شيء من هاهنا وهاهنا، فهو ميسور لكلّ من حصّل طرَفا من مبادئ اللّغة العربيّة، ليصبح به مندرجًا في مصافّ المؤلّفين.

ج. نماذج من قضايا التاريخ الإسلامي التي أعمل فيها ابن التباني النقد والتعليل:

–قال ابن التّباني[2] ما نصّه: «غلطه الفاحش [أي الخضري] في تقسيم الخلافة، فقوله: "لم يدفن الرسول ﷺ حتى كانت هناك فكرتان؛ **الأولى**: عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت، **الثانية**: تخصيصها؛ وهذه الفكرة ذات شعبتين **الأولى**: تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه، **الثانية**: تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ ...الخ». وبملكته النقدية وموهبته التعليلية المفحمة لخصومه يرد عليه ابن التباني بالقول: «يعني أنّ الخلافة تنقسم إلى قسمين خاصّة بقريش كلّها، وخاصّة ببعض بطونها؛ [هذا] تقسيم فاسد مختلط والحقيقة المنقولة في تاريخ الإسلام وهو بين أيدينا: أنّه لم يكن هناك إلاّ فكرةٌ واحدة وهي التّخصيص؛ فالأنصار رضي الله تعالى عنهم رأوها خاصّة بهم لأنهم جند الرسول ﷺ والدّار دارهم والمهاجرون كلّهم رأوها خاصّة بقريش كلّها لأنّهم قرابته».

قال ابن التّباني في رسالته (إتحاف ذوي النجابة)[3]: بعد قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[4] ... أمّا قول الرّافضة: إنّ هذه الآية نزلت في حقّ عليّ –كرّم الله وجهه–، بدليل أنّه ﷺ قال يوم خيبر:

---

[1] – تحذير العبقريّ ، ج1، ص34.

[2] – ابن التباني، تحذير العبقري، ج1، ص 189.

[3] – ابن التباني، إتحاف ذوي النجابة، ص58.

[4] – سورة المائدة، الآية 54.

﴿لأعطينّ الرّاية غدًا رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله﴾، فكان ذلك هو عليّ -رضي الله عنه-، فالجواب: إنّ هذا خبر آحاد، وعندهم لا يجوز التّمسُّك به في العمل فكيف يجوز التّمسك به في العلم -أي الاعتقاد-، وأيضًا: إثبات هذه الصّفة لعليّ لا يستلزم انتفائها عن أبي بكر، وعلى فرض تسليم انتفائها عنه لا يدلّ على انتفاء جميع الصّفات التي في الآية عنه، على أنّنا متمسّكون بظاهر القرآن الذي هو متواتر قطعي، وهم متمسكون بخبر الآحاد الذي هو ظنّيّ المتن والدّلالة، واحتجاجهم على إمامة عليّ في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] [احتجاجهم بها] باطل؛ لأنّ لفظ: ﴿الَّذِينَ﴾ عامّ في جميع المؤمنين، وقد سُئل أبو جعفر محمد الباقر عن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ هل هو عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقال: عليّ من المؤمنين، يَذْهَبُ إلى أنّها واردة في جميع المؤمنين، على أنّ حمل لفظ الجمع على الواحد وإنْ جاز على سبيل التّعظيم لكنّه مجازٌ لا حقيقةٌ، والأصل حمل الكلام على الحقيقة، وحيث تحقّق أنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾[2] مِنْ أقوى الدّلائل على صحّة إمامة أبي بكر، فلو دلّت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ على إمامة عليّ بعد الرّسول مباشرة لزِمَ التّناقض بين الآيتين، وذلك باطل، فوجبَ القطع بأنّ هذه الآية لا دلالة فيها على أنّ عليّا هو الإمام بعد الرّسول، وعليٌّ -رضي الله عنه- أعلم بتفسير القرآن من الرّافضة، فلو كانت هذه الآية دالّة على إمامته لاحْتجّ بها في محفل مِنَ المحافل، وليس لهم أنْ يقولوا: تَرَكَ الاحتجاج بها تَقِيَّةً، فإنّهم ينقلون عنه أنّه تمسّك يوم الشّورى بخبر الغدير، وخبر المباهلة، وجميع فضائله، و لم يتمسّك الْبَتَّةَ بهذه الآية في إثبات إمامته، وهذا يوجِبُ القطع ببطلان مذهب الرّافضة، وَهَبْ أنّها دالّة على إمامته؛ لكنّا اتّفقنا معهم على أنّها عند نزولها ما دلّت على حصول الإمامة لعلي في وقته؛ لأنّه ما كان نافذ التّصرف في الأمّة حال حياة الرّسول ﷺ، فلم يَبْقَ إلاّ أن تُحْمَلَ عَلَى أنّها تدلُّ على أنّ عليًّا سيصير إمامًا بعد ذلك، ومتى سلّموا هذا فنحن نقول بموجبه؛ فنحمله على إمامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان؛ إذْ ليس في الآية ما يدلُّ على تعيين وقتِ إمامتِهِ»[3].

4. تقييم لمنهج ابن التباني في كتابة التاريخ الإسلامي:

أ. مبادئ وشروط التأليف في التاريخ الإسلامي عند ابن التباني:

لقد أبان العلامة التباني في رسائله ومؤلفاته وفق القواعد والمبادئ التي التزم بها في تآليفه عن منهجية علمية أكاديمية تكاد تكون هي نفسها المتبعة اليوم في الأبحاث الجامعية المعتمدة، فهو كثيرًا ما يذكر دوافعه من كتابة رسائله وكذا أهدافه، مع الإشارة إلى الدراسات السابقة حول الموضوع، كما أنه لا يغفل ذكر المصادر الأصلية إذا أراد أن يستقي الآراء من مظانها وغيرها من مظاهر المنهجية المعروفة في كتابة الرسائل الأكاديمية. ولعل ما لمسته أثناء قراءتي لكل أعماله أن ابن التباني ألزم نفسه قبل الانطلاق في التأليف بجملة من الخطوات هي:

---

[1] – سورة المائدة، الآيتين (55-56).

[2] – سورة المائدة، الآية 54.

[3] – للتوسع يراجع: – محفوظ بن ساعد بوكراع، العربي بن التّباني النّاقد «دراسة بحثية قيِّمة غير منشورة».

- **القراءة الواسعة**: يبدو من خلال الدقة التي يكتب بها أن مترجمنا كان يقرأ بنهمٍ كبير وعميق، وهدفه في ذلك:
  - الإلمام بكل ما كُتب عن موضوعه من مصادر ومراجع وبحوث مهمة (قديمة وجديدة).
  - تحديد النتائج والأحكام حول مجمل المسائل التي كان يناقشها بناءً على قراءته.
  - نقل العبارات المدعمة بالأدلة العقلية والنقلية، وفق لغة سليمة وأسلوب قوي التأثير على القارئ.
- **الدقة التامة في فهم آراء الغير**: خصوصاً في نقل الفقرات والجمل المراد استهدافها بالنقد والتجريح، وهذا حتى لا يقع في الأخطاء الجسيمة، والرؤية غير الواضحة، فيتفادى سوء الفهم أو الخطأ في النقل.
- **لا يأخذ آراء الغير على أنها حقيقة مسلم بها**: إن ردوده الكثيرة وملاحظاته العديدة تعطيك جملة من الانطباعات الشخصية العلمية لابن التباني لعل أهمها: أنه لا يثق كثيراً، ويتعامل مع مختلف النصوص والكتابات والآراء على أنها بنيت على أساس غير سليم وهذا ما يسمى أكاديمياً بالشك المنهجي.
- **يهدف دوماً إلى أن يُنتج من تأليفه ابتكاراً**: ويُضيف جديداً إلى ما هو معروف في العلوم، وليس المقصود بالابتكار عند ابن التباني هو كشف الجديد فحسب، بل قد يُقصد به، مثلاً: ترتيب المادة المعروفة ترتيباً جديداً مبتكراً مفيداً، أو الاهتداء إلى أسباب جديدة لحقائق قديمة، أو تكوين موضوع منظم من مادة متناثرة. أو تصحيح أخطاء وفضح افتراءات حول قضية ما، أو شرح وتفسير غامض.....
- **قوة التأثير في القارئ**: إن قوة الاستدلال والبرهنة عند ابن التباني في كل كتاباته تجعل منك تحت دائرة تأثيره، فيُورد لك أدلة قاطعة ومتنوعة (نقلية وعقلية) واضحة ومُتسلسلة وذات جاذبية وأسلوب جميل بعيداً عن الاستطراد والإبهام، بما يجعلك في النهاية تُشاركه فيما ذهب إليه.
- **الحياد والصراحة**: إن من مميزات ابن التباني في كتاباته هو صراحته المطلقة في العرض والتوضيح واستخلاص النتائج المتوصل إليها، فمبدأه الأساسي دوماً هو أنه يبدأ دراسته لا ليُبرهن على شيء، بل ليكشف شيئاً.
- **تأصيل المرجع والمعلومات**: ففي كل رسائله يعتمد ابن التباني على المصادر الأصيلة مع وضع الإطار التاريخي والمذهبي لمؤلفيها.
- **استعمال الضمائر**: من المميزات الإيجابية في كتابات ابن التباني هو عدم استعمال ضمير المتكلم سواءً كان ذلك في ضمائر الرفع والنصب أو الجر منفصلة أو متصلة، بارزة أو مستترة، فلم ألمس في أي من كتبه أنه يُظهر الإعجاب بالنفس، فهو دوماً يذيل مقدماته وخواتيمه وبعضاً من الأحكام والمواقف بعبارات التواضع، جاء في خاتمة «التعقب المفيد»، أين تعقَّب فيه مقالات لمحمد بن أبي بكر الزُّرَّعي الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية قوله: «فهذه تسعة وأربعون بحثًا تعقبته فيها، ولو تعقَّبته في جميع خطله لما كفاني مجلد ضخم. وأسأل الله سبحانه وتعالى التأدُّب مع أئمة الدين وعلماء المسلمين ويقيني من مصارع الزيغ والإعجاب. والحمد لله تعالى على موافقة الحق والصواب»[1].

[1] – ابن التباني (محمد العربي)، التعقب المفيد على هدي الزَّرعي الشديد، ص74.

فخصلة التواضع تكاد تكون أبرز خصاله الحميدة وشيّمه الفاضلة التي يمكن أن نستنتجها مما جاد به يراعه، فلم يكن يشمخ برأسه عزوفاً وعروفاً، وتواضعه في تقديم نفسه خصوصاً بعد أن يكون قد أتى على مقالة أحدهم بالأدلة والبراهين المفحمة والموجعة. كأن يختم أحكامه ومواقفه رغم أنها دقيقة ومفحمة لخصومه بالقول: «نعوذ بالله تعالى من زلقات اللّسان وفساد الجنان....»[1]، أو قوله: «..فتأمّل هذا المثال فإنّه وافٍ بواقعة الحال، وبالله التّوفيق والاعتصام..»[2] أو قوله: «عامله الله تعالى بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته..»[3] ، أو كقوله: «رحم الله عبدًا قال خيرًا فغِنم أو سكت فسلم»[4].

- **اختيار اللغة والأسلوب المناسبين:** المتأمل في أسلوب الكتابة عند ابن التباني يجدها تتسم بالعلمية والموضوعية والمنطقية، كونها تشتمل على استخدام المصطلحات العلمية الدقيقة، مع سلامة اللغة ودقتها ووضوحها، وعدم التكرار، وحسن تنظيم المعلومات والأفكار والحقائق العلمية، والتماسك والتسلسل والتناسق بين العناصر حسب تقسيمها وتبويبها[5].

ب. وجه التشابه بين المناهج الحديثة ومنهج ابن التباني في البحث التاريخي:

لاشك أن كلمة "بَحَثَ" سواءً في معناها اللغوي أو معناها الاصطلاحي إنما تعني محاولة الوصول إلى نتيجة أو تفسير لظاهرة كونية أو إنسانية، وحتى يسلك البحث مساره الصحيح لابد أن تكون له ضوابط وحدود تحكم سيره. هذه الضوابط اللازمة لصحة مسار البحث هي المنهج أو الطريقة التي توجه خطواته وتستقيم بها مراحله، وقد تعددت مناهج البحث بتعدد مناشط العقل الإنساني في مجالات الفكر المختلفة الموسومة الآن بالتخصص، وأصبح لكل بحث فيها منهج علمي في إطاره الفلسفي العام. أما المنهج العلمي في البحث فهو إتباع خطوات منطقية معينة في تناول المشكلات أو الظواهر أو في معالجة القضايا العلمية.يمكن القول أن منهج البحث هو أسلوب للتفكير والعمل يعتمده الباحث لتنظيم أفكاره وعرضها وتحليلها للوصول للنتائج المرجوة وتحقيق أهداف البحث، طبعاً. توجد هنالك العديد من المداخل لتناول مشكلات البحث تتفق في أهدافها المنطقية ولكنها تختلف في الطريقة. وعادةً ما يرتبط المنهج المستخدم في البحث العلمي بموضوع ومحتوى وأهداف البحث تحت الدراسة.

ويمكن القول بعد المقارنة أن خطوات البحث المستخدمة في تنفيذ الأبحاث العلمية في المستويات العليا تكاد تشترك مع عدد من الخصائص والمميزات التي اتبعها ابن التباني في تآليفه والتي منها:

- **العمل المنظم:** الذي يقوم على الملاحظة والحقائق العلمية والذي يتم عبر مراحل متسلسلة ومترابطة.
- **الموضوعية:** والبعد عن التحيُّز.

---

[1] – ابن التباني (محمد العربي)، براءة الأشعريّين من عقائد المخالفين، ج1، ص144.

[2] – المصدر نفسه، ج1. ص159.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص63.

[4] – المصدر نفسه، ج2– ص68

[5] – محفوظ بن صغير، التأليف والكتابة عند العلامة محمد العربي التباني –المنهج والمقومات.«غير منشورة»

❖ **المرونة:** وتعني قابلية التعديل والتبديل بمرور الزمن لتواكب التطور الذي يطرأ على العلوم المختلفة (كتلك التعديلات والإضافات التي يُضيفها مع كل طبعة جديدة)

❖ **إمكانية التثبت من نتائج البحث بطرق وأساليب علمية معترف بها.**

❖ **القدرة على التنبؤ:** ويعني ذلك إمكانية وضع تصور لما يمكن أن يكون عليه المجتمع المسلم بسبب تأثيرات الأحكام الخاطئة، والافتراءات المدلسة.

الخاتمة:

لقد حاولنا بمناسبة الحديث عن هذه الشخصية الجزائرية الفذّة استحضار مختصر حياة عالم من علماء الجزائر في العصر الحديث ممن كانت لهم إسهامات كثيرة ومؤثرة في كتابة التاريخ الإسلامي خصوصاً خلال فترة صدر الإسلام، وتصحيحها والذود عنها من المدلسين والمستشرقين، وكذا محاولة الخروج بجملة من النتائج والتأثيرات التي انعكست بها على المحيط العربي والإسلامي، وإن نحن لم نصل إلى استيفاء جميع المعلومات عن هذا الموضوع فلعله من الممكن أن يكون عملنا المتواضع منيرًا سبيل من سيأتي بعدنا لمعالجته بشكل أعمق. ولن نكون مبالغين إذا جزمنا بالقول أن حياة وأعمال الشيخ ابن التباني ومآثره قد شكّلت أو كادت نواةً حقيقية لحركة إصلاحية وأدبية في الأمة العربية قاطبة، وهو ما أشار إليه عدد من المهتمين بالبحث في حياته وتراثه، فقد استطاع الشيخ بمنهجه في البحث والتدريس وأسلوبه في التعامل مع الواقع المحيط به أن يعطي لنفسه مكانةً عظيمة بين معاصريه، وباتت دروسه ومؤلفاته وفتاويه مدرسة روحية واجتماعية وأدبية وعلمية تربى عليها العديد ممن سيحملون مشعل النهضة والإصلاح فيما بعد.